تداوليّة الخطاب المعرفيّ في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي

The pragmatics of cognitive discourse in:

Pleasure and sociability by Abu Hayyan al-Tawhidi

خوخة رابح

جامعة باتنة 1

مخبر الشعرية

email: sizifd@yahoo.com

تاريخ الإرسال:05 – 05 - 2022 **تاريخ القبول: 08-11-2022**

ملخص

الخطاب المعرفي عند التّوحيديّ شمل مجموعة من الخطابات الإبداعيّة الفنيّة والفلسفيّة والدّينيّة والعلميّة واللّغويّة، تمحورت جميعها لتعكس ذلك الخطاب الموسوعيّ الّذي ينمّ عن قدرة الكاتب الثّقافيّة، هذا الخطاب المعرفيّ تشكّل عن طريق ذلك الحوار الحاصل بين المبدع والمخاطب، بهدف التّبليغ لتحقيق غاية أسمى ألا وهي بثّ المعرفة في المخاطب والتّأثير فيه. وذلك عن طريق انتهاج المبدع لمجموعة من السّبل المعرفيّة، والطّرائق المتعدّدة من حجاج وتفسير ووصف وسرد...، هذه الأنماط جميعها سيطرت على مسار السّرد، وتفاعلت كلّها لتحقيق التّواصل التّداولي بين طرفيّ الحوار ، وتفعيل خاصيّة الإقناع في المخاطب والتّأثير فيه، وتحقيق فعل الإنجاز المقصود، في إطار سياق تواصليّ غايته تحقيق الوظيفة التّواصليّة الّتي بُنيت أساسا على استراتيجيّة مُحكمة حملت في طياتها معارف وثقافة العصر ، الّتي جسّدها المبدع في تلك المحادثة بين الطّرفين على مسار اللّيالي السّمريّة في إطار تعاوني تداوليّ سعى من خلاله الكاتب إلى إقناع المخاطَب، وتغيير فكره ونظرته للحياة من خلال تلك الخطابات المعرفيّة الّتي سعى من خلالها التّوحيديّ إلى تثبيت سلوك معيّن لدى المتلقّي، وتحقيق القصديّة من التّواصل والتّداول الكلاميّ بينهما، وهي الفعل الإنجازيّ والتّأثير في السّامع وِفق تداوليّة الخطاب المعرفيّ الثّقافيّ بينهما.

الكلمات المفتاحية:خطاب؛نصّ؛تداوليّة؛معرفة؛ حوار.

Abstract:

The cognitive discourse of monotheism included a group of creative artistic, philosophical, religious, scientific, and linguistic discourses, all of which centered on reflecting that encyclopedic discourse that reflects the writer's cultural ability. in the addressee and influencing it. And that is through the creator's adoption of a set of cognitive methods, and the multiple methods of pilgrims, interpretation, description and narration... These patterns all controlled the course of the narration, All of them interacted to achieve deliberative communication between the two parties to the dialogue, to activate the feature of persuasion in the interlocutor and influence him, and to achieve the intended accomplishment within the framework of a communicative context aimed at achieving the communicative function that was built mainly on a tight strategy that carried with it the knowledge and culture of the era, which was embodied in that conversation between the creator in the The two parties are on the path of the Samaritan Nights in a cooperative and deliberative framework through which the writer sought to persuade the addressee, and change his thought and view of life through those cognitive discourses through which al-Tawhidi sought to establish a specific behavior in the recipient, and to achieve the intentionality of communication and verbal exchange between them, which is the executing action. In the listener according to the deliberativeness of the cultural discourse between them.

Keywords::speech; text; deliberative; knowledge; a dialogue

مقدمة:

تعد اللّغة وسيلة تواصل ضمن إطار التّبليغ والتّفاهم والانسجام في التّخاطب الإنساني بواسطة الفعل الكلامي النّاجم عن مختلف علاقات التّخاطب، بهدف التّبليغ الّذي لا يمكن له التّحقق إلاّ إذا تحقّق فعل التّخاطب اللّغوي بهدف توصيل فكرة ما أو لغرض التّعامل بواسطة اللّغة لاستمرار التّواصل والانسجام بين بني البشر.

اللّغة عامل مهمّ في عمليّة التّواصل، وضرورتها تكمن في أنها وسيلة للتواصل في الحياة الاجتماعيّة، ووسيلة للتّعبير عن انشغالات الفرد ومعاملاته الّتي تفرضها الحتمية مع الآخرين في وسط اجتماعي معيّن، وهي ترجمة للأفعال والمشاعر وما يجول في أذهاننا، ناهيك على أنّها تساهم في عملية التّخاطب وفق ما يتطلّبه السّياق التّواصلي،فهي بجميع معطياتها اللّغويّة والجمالية وجوانبها الإبداعيّة ظلّت تلازمنا في لحظات تأملنا وإلهامنا، وقد يتعدّى ذلك إلى تواصل فكري إبداعي يرقى إلى مستوى الخطاب المطلوب.وعامل مهم في تحقيق رغبات الإنسان التواصلية، فيتسنى له القدرة والقابلية على الإبداع والتفكير السّليم بحسب طرق تواصله مع الآخرين، فيؤدي ذلك إلى تطوير فكره وتحقيق مجال إيديولوجيّ خاص به.

اللّغة رموز وإشارات تعبّر عن انشغالات المتكلّم، وهي نظام يحقّق وظيفة معرفيّة تواصليّة بين المتكلّم والمتلقي لتحقيق التّواصل الاجتماعيّ والثقافيّ، فهي من أبرز الأدوات الّتي يستخدمها المتكلّم لممارسة عمليّة التّواصل بينه وبين المتلقي الّذي بدوره يثير عمليّة المخاطبة بطريقة تبليغ لغويّة يكون عامل التّأثير فيها بين الأطراف المتحاورة.

ومن هنا يظهر دور اللّغة كعامل مهمّ في عمليّ التّواصل والتّعبير،وقد يتعدّاه إلى الإبداع والفكر الّتي تساهم بدورها في إرساء الخطاب الأدبيّ، الّذي بدوره يتعدّى التّلفّظ اللّغويّ الفنيّ الإبداعيّ، الّتي بدورها تبدي الجانب الفكري والتّعبيري الّذي ينمّ عن مجموعة المعارف والعلوم الّتي قد يبرع فيها الفرد ضمن إطار اجتماعيّ معيّن وفي ظروف طبيعيّة.وتظلّ كممارسة سواء أكانت نطقيّة لفظيّة أم مكتوبة، فهي تعكس ما مدى التّطوّر الحضاري السّائد في مجتمع معيّن، فاللّغة وعاء واحتواء للفكر الإنسانيّ ،والفكَرة الّتي دونتها اللّغة وحافظت عليها وحرصت على وجودها ضمن المسار التّاريخيّ للإنسان، ناهيك عن أنّها ضرورة حتميّة في عمليّة التّواصل والتّعبير لكل قوم أو مجتمع ما.كما

عرّفها ابن جنيّ«ت 392هـ»: أمّا حدّها فهي أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»1، فهي أصوات ورموز منطوقة لها قيمة دلاليّة، وأداة تعبير عن أغراض الإنسان وحاجياته بحسب الوظيفة والهدف، وما سوف يعبّر به للمتلقي، وبهذا فهو يُصنّف اللّغة ويُدخلها في صميم العمليّة التّواصليّة.

والإنسان يمارس عملية التّفكير فيترجمها بأداة اللّغة، قبل أن يمارس ويصدر الملفوظات اللّغويّة، وكذلك يستطيع أن يُدخل عليها تغييرا في مدلولاتها ومعانيها ومفاهيمها، بحسب القدرات العقليّة الّتي يمتلكها.«فاللّغة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتّفكير...، وهي آليته وأدواته، أو المساعد الآليّ له»2، لأنّ ممارسة عمليّة التّواصل بالكلام المنطوق أو المكتوب كلاهما يمثّل اللّغة، ويمثّل عمليّة تفكير مسبقة يُمليها عقل الإنسان، وبعد تفكير جليّ يصدر من المتكلّم ما يُسمّى بالإبداع اللّغويّ المتمثّل في تشكيل خطاب بجميع معطياته وخصائصه اللّغويّة والفكريّة.

فمنذ البدء كانت اللّغة الرّمزيّة والمنطوقة من العناصر المهمّة في التّواصل الإنسانيّ، فهي سايرت ولازمت حياة الإنسان في جميع تطوّرات حياته البسيطة الّتي فرضت وجودها الحاجة الملحّة للتّواصل مع الآخرين، وكذلك فطرته الّتي تقتضي ضرورة تعامله واتّصاله بالآخر. فما أحوج الإنسان لها بأبسط صورها التّواصليّة، ولا غنًى عنها في حياته الاجتماعيّة، سواء أكانت بشكل ملفوظ أم غيره لأنّها « تتضمّن جميع صور التّخاطب سواء أ كان لفظيّا أم غير لفظيّ، بينما لا نُطلق لغة الكلام في الغالب الأصحّ إلاّ على صورة التّخاطب اللّفظيّ الإنسانيّ، سواء هذا التّخاطب منطوقا أو مكتوبا»3. بالإضافة إلى أنّ اللّغة نظام مكوّن من أنظمة فرعيّة : وهي النّظام الصّوتيّ والنّظام الصّرفي والنّظام النّحويّ، وكلّ هذه الأنظمة تشتمل على مكوّنات نظاميّة تخضع لأصول وقواعد.

1أبو الفتح عثمان بن جنيّ- 2006م -الخصائص-ج(1)- تحقيق محمّد علي النّجار-المكتبة العلميّة- القاهرة-ص 33.

2أحمد محمّد المعتوق-1996م-الحصيلة اللّغويّة- عالم المعرفة--ص 32.

3نفسه– ص37-38.

وكلّ هذه الأنظمة تتضافر من أجل الوصول إلى إنتاج أداء مطّرد في حقل الاتّصال اللّغويّ»1،في أثناء التّواصل الاجتماعي المطلوب.

و الدّراسات اللّسانيّة الحديثة نظرت للّغة من جانب أنّها علم قائم بذاته يبحث في اللّغة، ويدرس وظائفها وأساليبها المتعدّدة، وجانب التّواصل فيها؛ أي دراستها وفق الاستعمال والتّواصل، وهذه الدّراسة لا تقتصر على دراسة لغة معينة، بل تهتمّ بدراسة الظّاهرة الإنسانية المعروفة في المجتمعات باسم اللّغة. وهذا التّوجّه التّنظيريّ كان من نصيب المنهج التّداوليّ الحديث الّذي اعتبر أنّ للّغة وظيفة عمليّة تُحقّق الفعل الكلاميّ في إطار الحدث التّخاطبي الذي يُسهّل عمليّة التّواصل والتّداول الكلاميّ بين أطراف الحوار.

بل يُعد هذا المنهج مرحلة جديدة لتأسيس تصوّرات مختلفة تكاد تكون مُغايرة تماما لتصوّرات الدّارسين في مجال علم اللّسان واللّغة. هذا التّنظير المستحدث يُعتبر قفزة نوعيّة مكّنت أقطاب اللّغة وعلمائها من النّظر بشكل جديّ لقضيّة اللّغة من ناحيتي الاستعمال والتّواصل. عل اعتبار أنّه تنظير نقديّ حديث نظر إلى اللّغة من جانب مُغاير تماما للتّنظير الشّكليّ الّذي حُسب على عاتق المنهج البنيويّ، ويرجع ذلك كلّه إلى المجهودات الجبّارة الّتي قام بها علماء الفلسفة التّحليليّة الّذين حرصوا على أنّ التّعامل مع اللّغة لا ينحصر في دراسة اللّغة في ذاتها ولذاتها؛ بل دراستها وِفق الاستعمال والتّواصل. هذه الجذور والنّظريات والقبسات المعرفيّة استطاعت أن تَخلق منهجا جديدا جديرا بقراءة الخطاب وتحليله ألا وهو المنهج التّداوليّ.

والتّداوليّة «كلمة مشتقة من الأصل اليونانيّ، وهو كلمة برغما (**pragma**)، وتعني العمل، ومنها أيضا كلمة (**practice**)(يمارس عملا). وكلمة **(pratical** (عملي) »2. على اعتبار أنّها تنظير حديث لامس معالم اللّغة من جانبيها التّواصل والاستعمال. لذا فهي «تُعنى في رأي موريس بالعلاقات بين العلامات ومُستخدميها، والّذي استقرّ في ذهنه أن: التّداوليّة "

1تمّام حسّان – 2007م -اجتهادات لغويّة –ط01– عالم الكتب - القاهرة– ص111.

2وليام جيمس- البراغماتيّة- Pragmatics- 2014م - ترجمة وليد شحادة- ط01- دار الفرقد-سوريا- ص 54.

تقتصر على دراسة المقام الّذي يجري فيه التّواصل »1،هذا التّنظير أخذ على عاتقه دراسة كلّ ما وُضع على حافة الطّاولة وأُهمل، من قضايا لغويّة عجزت المناهج الشّكليّة على دراستها، لكنّ التّداوليّة سارعت إلى الإحاطة لما وُضع في سلّة المهملات، وبادر علماء اللّغة المحدثين إلى دراستها وسبر أغوارها للوصول إلى حَصر مجموعة من الآليات لدراسة اللّغة وفق نظام تداوليّة اللّغة في سياق تواصليّ يتضمّن مجموعة من العناصر بدءًا من المتكلّم والمخاطب،ضمن مقام تواصليّ معيّن، كما عرّفها " فيليب بلانشيه«بأنّها الدّراسة الّتي تُعنى باستعمال اللّغة، وتهتمّ بقضيّة التّلاؤم بين التّعابير الرّمزية والسّياقات المرجعيّة والمقاميّة الحديثة والبشرية »2ضمن مرحلة وطور استعمال اللّغة، أو ضمن إطار الجانب الوظيفيّ للّغة الّذي ينجمُ عنه تحقيق الفعل الإنجازيّ في أثناء التّواصل بين أطراف الحوار في عمليّة المحادثة.

وهذا الجانب الدّراسيّ للّغة استطاعت التّداوليّة أن تتبناه في تعاملها وقراءتها للخطاب بجميع مستوياته، على المستوى الاستعمال الطّبيعيّ للّغة فيما يخصّ تعالم الأفراد مع بعضهم، الّذي تفرضه الحياة الاجتماعيّة، وعلى مستوى الخطاب الفنيّ المعرفيّ الّذي يتمتّع بلغة إبداعيّة، وجوانب بلاغيّة جماليّة لكشف كُنه وسرّ هذا الخطاب ضمن سيرورة التّواصل بين المتكلّم والمخاطب في سياق تواصليّ تداوليّ مُعيّن. هذا النّوع من الخطابات المعرفيّة نجده أخذ مساحة واسعة في كتاب " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيّدي، وتخلّل المحادثة والحوار بين المبدع " التّوحيديّ" والمتلقّي الوزير" أبي عبد الله العارض". لكن إلى أيّ حدّ يستطيع المنهج التّداوليّ بيان الجوانب الفنيّة والجماليّة في الخطاب المعرفيّ من حيث انّه مكوّن أساسيّ من مكوّنات النصّ، و ما هي الوظيفة التّواصليّة الّتي ينطوي عليها هذا الخطاب والّتي تُمكّننا من كشف السّمات المعرفيّة لديه، خاصّةً وأنّ المبدع يصبو إلى قصديّة التّأثير في المُخاطب وتوجيهه؟. وكذلك ما الّذي

1آن روبول- جاك موشلر- 2003م-التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل- ترجمة سيف الدّين دغفوس- ط01-المنظّمة العربيّة للتّرجمة- بيروت- لبنان- ص29.

2فيليب بلانشيه- التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان- 2007م- ترجمة صابر الحباشة- ط01- دار الحوار للنّشر- سوريا- ص18.

استطاع أن يضيفه هذا المنهج ليُزيح الستار على هذا النّوع من الخطاب؟ ويجعل منه حُلّة جديدة في السّعي إلى قراءته بصورة أخرى تُمكّننا من إعطاء مزايا ومميّزات هذا النّوع من النّصوص وبعثه من جديد في زمن غير زمانه، وكشف مزاياه ومضامينه البلاغيّة والفنيّة الإبداعيّة الّتي اجتاحت مُعظم الخطابات المعرفيّة فيه الّتي تداولها كلّ من المتكلّم والمتلقّي ضمن سياق تواصليّ استطاع أن يستحضر سياقات خارجيّة تُعبّر عمّا تُكنّه ذاكرة المبدع من علوم ومعارف عكست ثقافة العصر العباسيّ في القرن الرّابع الهجريّ.

ولقد انتهجت المنهج الوصفي التّحليليّ لاستعانة ببعض آليات التّداوليّة من افتراض مُسبق ومبدأ التّعاون وتضمينات بلاغيّة معرفيّة وفق خاصّية الحوار المتبادل بين الطّرفين لتفعيل فعل الإنجاز المُراد تحقيقه لدى المتلقّي.

1-تداوليّة الخطاب المعرفيّ في: الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيديّ:

الإمتاع والمؤانسة نصّ سرديّ جلّ معارفه دارت بين الكاتب والوزير بطلب من المحاور الوسيط " أبي الوفاء المهندس"، وهو خطاب فنيّ أدبيّ بلاغيّ سرديّ حواريّ حجاجيّ ثقافيّ معرفيّ، وهل نستطيع أن نُصنّفه ضمن تلك الفروع المعرفيّة، أم نحصره في جانب فكريّ واحد، إنّه كلّ ذلك الخضمّ المعرفيّ الّذي يعكس موسوعة معرفيّة جسّدت علوم وثقافة العصر بما تحتويه من: معارف فلسفيّة ودينيّة وبلاغيّة وشعر ونثر وقصص وحكايات ومواعظ...، لهذا كلّه يَصعُبُ تصنيفه، بل إنّه موسوعة زمانه، وعصره، وبلاغة الإبداع والتّأليف في عصره.

إنّه خطاب أدبيّ سرديّ ينطوي على ذلك الجانب الإبداعيّ الفنيّ الّذي يُجسّده عناصر السّرد من تخييل وشخصيات بدءًا من المبدع والمخاطب، ناهيك عن ذكر مجموع الشّخصيات الّتي استلهمها القصّ ضمن حكايات السّمر اللّيليّ في فضاء المكان ألا وهو بيت الوزير، وزمان ينحصر في ليالي السّمر، هذه مجموع المظاهر المرتبطة بالجانب السّرديّ تُثبت مدى علاقته الوطيدة بالقصّ ضمن طرح بلاغيّ استحوذ على جماليّة التّأليف والإخراج فاقت كلّ عناصر الإبداع ضمن طيّات الحوار التّواصليّ بينهما.

كما تزاحمت وتداخلت فيه مجموعة من الخطابات المعرفيّة ساهمت بشكل كبير في تكوين وتشكيل جوانبه الفنيّة كالخطابات الفلسفيّة والعلميّة ودينيّة ونقديّة ولغويّة

تمحورت جميعها لتعكس ذلك الخطاب المعرفيّ، هذا التّنوّع غير المسبوق جعل من الخطاب المعرفيّ أن يُوضع ضمن دائرة الموسوعيّة.

استطاع المبدع أن يُشكّل خطابه المعرفيّ من خلال ذلك الحوار الحاصل بين المتكلّم والمخاطب بهدف تبليغ رسالة معيّنة وذلك بانتهاجه سُبل عديدة تُتيح له استمرار التّواصل بينهما؛ إذ يتجاوز فيها البنية اللّغويّة إلى توظيف طرائق متعدّدة كانتهاجه مسار الحجاج والوصف والسّرد لتفعيل وتحقيق التّواصل بين الطّرفين بغرض إقناع المخاطب والتّأثير فيه، وتحقيق فعل الإنجاز المقصود في إطار سياق تواصليّ زمانيّ ومكانيّ نجح إلى حدّ كبير في تحقيق الوظيفة التّواصليّة بينهما.

1.1-آليات تداوليّة الخطاب المعرفي التّوحيديّ:

الخطاب المعرفيّ اجتاح سرديّة التّوحيديّ، الّذي أراد أن ينقله من خلال ذلك التّواصل بينه وبين الوزير، ويجسّدها من خلال الكلام المتداول في المجلس وفق شروط المحادثة الّتي أبرم قوانينها منذ اللّيلة الأولى. الّتي من خلالها وضع الكاتب استراتيجيّة مُحكمة في تواصله مع المتلقّي، فهو لا يقتصر على سرد مضامين المحادثة في تصوير الحياة العقليّة والسّياسيّة والاجتماعيّة بقدر ما يهدف إلى الإقناع والتّأثير الفعليّ في السّامع، وجعله يلتزم ويعمل بتلك القيم، وذلك من خلال عرضه لتلك القضايا الفكريّة والمعرفيّة المختلفة. كالمناظرة الّتي بدورها تعكس صراعا فكريّا ينمّ عن الخوض في قضايا معرفيّة شائكة، غايتها إفحام الخصم وإقناعه بالحجّة والدّليل. هذا النّوع من الخطابات يعكس وظيفة تواصليّة، يهدف من خلالها الكاتب إلى التّوجيه والتّغيير في المخاطب وحمله على العمال بتلك القيم في حياته الطّبيعيّة.

الوزير لا يقلّ معرفة وثقافة وحكمة عن المبدع؛ لأنّه يُبادر دائما إلى اقتراح السّؤال في بداية كلّ ليلة على مدار أربعين ليلة، كما في اللّيلة الثّامنة حين طلب الاستزادة بالعلم والمعرفة، فبادر التّوحيديّ إلى عرض مناظرة جرت في مجلس الوزير: أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، بين " أبي سعيد السيرافي" و" أبي بشر متى" في حديث المنطق « قال أبو سعيد: حدّثني عن المنطق ماذا تعني به؟... قال "متى": ’ني به انّه آلة من آلات الكلام، يُعرف بها صحيح الكلام عن سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان، فإنّي اعرف به

الرّجحان من النّقصان...، فقال أبو سعيد: أخطأت؛ لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنّظم المألوف والإعراب المعروف إذا كُنّا نتكلّم بالعربيّة، وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالعقل...»1. مناظرة تطرّق فيها الطّرفان إلى عرض أحكام وخصائص كلّ من " المنطق" و"اللّغة"، وعلاقتهما ببعضهما ، وما مدى تلاحم كلّ منهما للإفصاح والبوح عن مكنونات النّفس، وبيان جوهر قضايا العقل والمنطق.

المحادثة جرت في مواجهة بين الطّرفين في مجلس الوزير، أراد أبو حيّان سردها وتبليغها للمتلقّي ليُبدي من خلالها سعّة فكره وبراعته وقدرته الفائقة استيعاب قضايا العقل في عصره، كما أظهر في هذه المناظرة عن جانب المعرفة والثّقافة الّذي يُبديه كلّ من "متى" و"السيرافي"، والدّال على قدرة هذا الأخير في إقناع الخصم بالحجّة والدّليل، وذلك بداية من عنصر التّلفّظ الّذي يُظهر ثقافة الرّجل في مقام حواريّ قد استوفى عناصر السّياق بزمانيته ومكانيته، ووفق شروط المحادثة، وذلك بالإقرار بالقول حُجّة وإقناعا لتحقيق الوظيفة التّواصليّة ضمن إطار التّعامل مع الآخر لإثبات القدرة المعرفيّة، والاطّلاع على مكنونات المبدع المعرفيّة.

1.1- الافتراض المُسبق:

الافتراض المسبق « شيء يفترضه المتكلّم يسبق التّفوّه بالكلام، أي أنّ الافتراض المُسبق موجود عند المتكلّمين، وليس في الجمل »2، والمحادثة بين السّيرافي ومتى، تسبقها معرفة جليّة تجاوزت معارف وعلوم العصر إلى فلسفة من سبقهم من علماء العرب واليونان.

ويُفرض مُسبقا أنّ كلّ من المتكلّم والسّامع في تجاوبٍ من خلال المحادثة بينهما، على سبيل المشاركة ضمن إطار تداول الكلام والاستمرار في الحديث بصيغة المتكلّم والمتلقّي والعكس، على اعتبار أنّ كلّ منهما لديه سعة معرفيّة واسعة مكّنته من الخوض في قضايا هامّة كالمنطق والعقل وبلاغة اللّغة والنّحو. من خلال سؤال السيرافي عن المنطق يُفترض

1أبو حيّان التّوحيديّ- 2009م -الإمتاع والمؤانسة- الجزء الأوّل- تحقيق أحمد جاد- ط01- دار الغد الجديد- القاهرة- ص89.

2جورج يول- - 2010م - التّداوليّة- ترجمة قصي العتابي- ط01- دار الأمان- الرّباط- ص51..

مسبقا أنّ هذا العالم ضليع بمعرفة فلسفة اليونان، بدليل أنّه يبادره دائما بالتّصحيح والتّزويد بالمعلومات بعد الاعتراف للخصم بمواطن الخطأ، وقلّة المعرفة لديه، وشهادته بذلك أمام من كان حاضرا في المجلس. هذا الحوار بين الطّرفين يبعثه للاستمرار في المحادثة من خلال ذلك التّعاون بينهما، ويبرز ذلك من خلال أنّ كلا الطّرفين يجود بما عنده من معارف، ولا يُحاول إخفاءها عن الآخر، فيبدي ما يكنّه عقله وذاكرته من معلومات بهدف إفحام الخصم من جهة، ومن جهة ثانيّة فهو يُظهر للحاضرين مدى قدرته المعرفيّة لكي يُكلّل مجهوده بالنّجاح. هذا النّوع من التّعاون في معظم الأحيان مجرّد نقطة بداية لفهم ما يُقال بينهما.

2.1- مبدأ التّعاون:

مبدأ التّعاون هو «مجموع القواعد الّتي يخضع لها المتحاورون ليتحقّق التّواصل بينهم، وليصلوا إلى فائدة مشتركة تتطوّر بقدر ما يُساهم كلّ طرف مساهمة فعّالة في الحوار، وبما يراه مُناسبا لمقام القول »1 ، وكلّما تعاون الطّرفان كانت استجابة الفهم والاستيعاب مُنجزة للفعل المُراد الوصول إليه. ولقد تحقّق "مبدأ التّعاون" إلى حدّ بعيد بين التّوحيديّ والوزير، نظرا لكون المساهمة في المحادثة اقتصرت على تبادل الكلام من خلال خوضهما في قضايا أرّقت علماء العصر، وجعلت من طرفي الحوار طرحها كقضيّة على طاولة النّقاش جملة وتفصيلا، خاصّة وأنّ "متى" يُشيد بالفلسفة اليونانيّة، وأنّ علماءها أصحاب عناية بالحكمة والبحث في أغوارها ومنابعها، و"السيرافي" ينتصر للّغة والنّحو والبلاغة...، على افتراض أنّه عالم بخباياها وقواعدها وسرّ بلاغة النّظم فيها، فهو يُفصح عن كميّة مناسبة من المعلومات تكون دليلا قاطعا لصحّة كلامه، وتكون لها صلة بالموضوع المطروح، وتُحقّق مصداقيّة أقواله، وأنّ طرحه كميّة مناسبة من المعلومات عن أسرار لغة القرآن، ماهو إلاّ نوع من قول الحقيقة قدر الإمكان، ومحاولة إبداء الوضوح في معلوماته لكي تكون أقرب للتّصديق بالعقل والواقع، وهذا كلّه يُوفّر قدرا من المعلومات في المحادثة يُبيّن مظهرا جليّا يحسم سيرورة الكلام، ويظهر لنا فكرة مفادها أنّ الطّرفين

1محمود عكاشة- البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)- " دراسة المفاهيم والنّشأة والمبادئ"- مكتبة الآداب- القاهرة- مصر- ط01-2013م- ص90..

يُبديان المبدأ التّعاوني بينهما، رغبة منهما في استمرار المشاركة، وغلبة الطّرف الأقوى فكرا حجّة.

إنّ سياق المحادثة بين الطّرفين يبعث نوعا من احتماليّة إبداء عدم اعتراف "متى" بالنّحو العربيّ دليل على جهله به، وهذا يظهر من خلال ما صدر منه من أقوال ينجرف من خلالها إلى تزكيّة فلسفة اليونان، وتلك التّعابير الصّادرة منه تحيد عن الموضوع ومناقشته لأمور غير ذي صلة به؛ لكن سرعان ما يُجبره المتكلم إلى الانصياع إلى دائرة الحديث ليبيّن له مواطن الخلل في أقواله، ويفرض عليه الإقرار بالحقيقة فيلزمه إلى الاعتراف وإظهار التّعاون من جديد. كما في قوله:« لو نثرت أنا أيضا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي»1. فيكفيه الاعتراف بالخطأ لأنّه سبيل إلى ضمان الوضوح في القول ومصداقيّة الطّرح. والمساهمة في قول الحقيقة الّتي لها صِلة بالموضوع، والوضوح في الطّرح ما هو إلاّ نوع من التّفاعل لبيان الاستجابة بين طرفيّ الحوار والوصول إلى نتيجة عن طرق استمرار التّواصل التّداوليّ بينهما، وتفعيل عنصر التّأثير في المخاطَب، واهتمام المتكلّم بأنّ المستمع شريك مُتعاون في المحادثة، ومستوعب لمضامين القضايا المطروحة، فيبدي بذلك تجاوبه واستيعابه لما يُقال، فيحدث بذلك التغيير فيه، فيبدي اقتناعه بإدلائه للرّأي الصّريح، كما جاء في قول"متى":« لو نثرت أنا أيضا عليك من مسائل المنطق أشياء لكن حالك كحالي. قال أبو سعيد: أخطأت، لأنّك إذا سألتني عن شيء أنظر فيه، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظه على العادة الجارية أجبتُ.»2. وهنا يُبدي المخاطب نوعا من الرّضا والاقتناع لما تلقّاه من الطّرف المتكلّم، على افتراض مُسبق أنّ "السيرافي" واعٍ بخبايا المعرفة فيما يخصّ المنطق وبلاغة اللّغة، وانّ هذا الافتراض موجود في ذهن المتكلّمين. وبهذا فإنّ هذا التّواصل بينهما فرض نوع من التّعامل خاصّة وأنّ كلّ طرف يُدرك أنّ الآخر ضليع ومطّلع على ثقافة ومعارف العصر، ويتمتّع بخبرة واسعة تمكّنه من إفحام الآخر، وإبداء السّيطرة على مجريات الحديث، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على أنّ المحادثة بين طرفي الحوار يجب أن يكون المساهمة في الكلام من خلالها على قدر

1السّابق- ص98.

2نفسه- 98.

المعلومات الصحيحة الّتي تبعث معنى الصّدق في الطّرح لحصول التّأثير في المخاطب وتحقيق فعل الكلام.

المناظرة قام بسردها المبدع التّوحيديّ والسّامع هو الوزير، هذا الأخير على دراية جيّدة بأنّ المتكلّم له من العلم والمعرفة تفوق التّصوّر، على افتراض مُسبق أنّ له ذاكرة قويّة استطاعت أن تستوعب ثقافة العصر، وأنّه أمام موسوعة فكريّة وعقليّة ألمّت بجميع القضايا المعرفيّة، لذا جعله يأخذ بناصيّة الكلام، وهو يستمع إليه ومُستلذّ لسماع الحديث وإحساسه بالمتعة والأنس، فيُبدي تأثره بقوله:« هذا حسنٌ، هذا في الحُسن نهاية»1. ويتمّ الانصراف راجيا تجدّد اللّقاء به في ليلة أخرى موالية، ليكون هو من يُبادر إلى طرح سؤال معرفيّ جديد بُغية لاستفادة من التّوحيديّ، ويستمع بإمكان لما يقوله في ليل سمر قادم.

2- تداوليّة الحوار في الخطاب المعرفي التّوحيديّ:

ينطوي خطاب التّوحيديّ على أشكال تعبيريّة وأنماط خطابيّة متنوّعة، نقتصر من خلالها على الخطاب المعرفيّ الّذي يعكس براعة إبداعيّة تجسّدت في لغة فنيّة هيمن فيها جانب البلاغة والبيان، فحقّقت نوعا من التّواصل المستمرّ على مدار ليالي السّمر الأربعين ضمن سلسلة من الخطابات الّتي أبدت حصيلة التّجربة واستخلاص معارف العصر بطريقة حواريّة تداوليّة استوفت شروط السّياق المقامي، والوظيفة التّواصليّة إلى حدّ أن منحت للقارئ أُفقا بلاغيّا وجماليّا للّغة، وبهذا كان للّغة الدّور الفعّال في كشف سُبُل تلك المعرفة وفروعها وخصائصها من خلال ما طرحه المبدع، ومن جهة قدرته على التّأثير في السّامع وخَلق شعور الاستمتاع والأنس فيه، وحمله على تجديد فرصة التّواصل معه من جديد.

يقودنا هذا التّصوّر إلى اعتبار أنّ السّمر مقام تواصليّ بعث ثقافة ومعارف العصر ضمن الحوار التّداوليّ بين الطّرفين، استطاع المبدع فيه أن يصنع بلاغة القول لسرد المعارف والقيم الإنسانيّة، ومحاولة منه اخذ دور الرّاوي لتحقيق وظيفة تواصليّة

1السّابق- ص43.

متضمّنة لجملة من الأفكار والمعارف الثّقافيّة الّتي اقتضاها ذلك الحوار التّداوليّ المباشر بينهما الّذي أسفر عنه ولادة عدّة خطابات كان للسّياق التّواصليّ الدّور الكبير في كشف كُنهها،ومضامين الكلام الخفيّة فيها،«وهذه التّضمينات جزءٌ مِمّا يتمّ إيصاله دون قوله »1، الّتي تتوارى خلف الكلمات والجمل، وتبعثها من جديد لتعطيها صبغة جماليّة وبلاغيّة من خلال تداول الكلام الّذي يتضمّن مقصديّة توجيه وتعليم المخاطب، والحرص على أن يكون الإقناع بالحجّة عن طريق بلاغة القول الّذي يتميّز بالجانب الإبداعيّ الفنيّ الجماليّ، وجانب الاهتمام بأنساق وتراكيب اللّغة،ومن جهة ثانيّة القراءة المكثّفة وتلك الثّقافة الّتي جعلت منه شخصيّة مميّزه وقادرة على الإقناع بالحجّة والبيان.

خطاب التّوحيديّ شكّله الحوار الّذي يُعد تقنيّة خطابيّة تعتمد على ثنائيّة "السّؤال والجواب"، من خلال المحادثة الّتي جرت بين الكاتب والوزير في مقام معيّن، وما يندرج عن هذا السّياق التّواصليّ من سياقات تفرض على المتكلّم التّعبير عن مواقفه وتوجّهاته في العديد من القضايا الّتي تخصّ حياة الإنسان الدّينيّة والفكريّة، وقضايا فلسفيّة عالقة لدى علماء عصره مُحاولة منه بعثها من جديد وعرضها في المجلس لكي يتسنّى للمخاطب معرفتها، وذلك بتقريب وجهة نظره للسّائل، ومحاولة التّعبير عن رأيه لإقناعه والتّأثير فيه، وذلك من خلال الوظيفة الحجاجيّة الّتي يُبديها مضمون الحديث بينهما، بهدف تغيير فكر المتلقّي وتهذيب سلوكه. يقول السّارد:« فأين الدّين من الفلسفة؟ وأين الشّيء المأخوذ بالوحي النّازل من الشّيء المأخوذ بالرّأي الزّائل؟. قال: النّبيّ فوق الفيلسوف، والفيلسوف دون النّبيّ، وعلى الفيلسوف أن يتّبع النّبيّ، وليس على النّبيّ أن يتّبع الفيلسوف، لأنّ النّبيّ مبعوث، والفيلسوف مبعوثٌ إليه،قال: ولو كان العقل يُكتفى به، لم يكن للوحي فائدة، ولا غناءٌ، على أنّ منازل النّاس متفاوتةٌ في العقل...»2. هذه مجموع القضايا الّتي استطاع التّوحيديّ إدراجها ضمن خطابه، الّذي قد يُنظر ٰإليه على أنّه أدب فلسفيّ؛ نظرا لكونه يحمل من المعارف الّتي تستدعي التّأمّل والتّفسير على اعتبار أنّ الفلسفة تبحث في عُمق المعرفة، كما تعد من المضامين الّتي تحمل فِكرا وإيديولوجيا قصد من ورائها المبدع أن

1جورج يول- التّداوليّة- ص76.

2السّابق- الجزء الثّانيّ - ص183.

يُمارس وظيفة تواصليّة بجميع عناصرها السّياقيّة لتبليغها وإرساء وتجميع معالمها وسرد حقائقها للمتلقّي، وبهذا فهو استطاع أن يُشكّل خطابا معرفيّا ويمنحه بُعدا تواصليّا أراد تحقيقه عن طريق ذلك السّياق المقاميّ التّداولي بينه وبين المتلقّي عبر ثلاثة أفعال مرتبطة ببعضها ، وتمثّل في إنشاء تعبير ذي معنًى، أراد من خلاله تبليغ السّامع الوزير بخبايا الفِكر الفلسفي الّذي راج صيته من طرف علماء العصر ومحاولة مقارنته بالدّين السّماويّ، وهو بهذا قصد تبليغ ملفوظ يؤدّي وظيفة تواصليّة، ليمنح الحوار قوّة المقارنة بين القضيّتين، هذا الإنجاز للفعل الوظيفي عبر التّواصل التّداوليّ سمح بتحقيق التأثير في الطّرف الآخر، أو على الأقلّ قام المتكلّم بتقديم معلومات قد تكون خافيّة للسّامع فيؤثّر في ذهنه بواسطة قوّة تلك الخطابات المعرفيّة الّتي استحوذ عليها الخطاب السّردي برمّته، وتحمل في طيّاتها غرضا تواصليّا يتمثّل في التّثقيف والتّوجيه والتّعليم، وبعث الخُلُق الحسن في نفسيّة المُخاطب. هذه المقاصد العمليّة يسعى من خلالها التّوحيديّ إلى تثبيت سلوك مُعيّن لدى المتلقّي لتحقيق القصديّة من التّواصل وهي الفعل الإنجازي التّأثيريّ في السّامع.

إنّ التّطرّق لمثل قضايا الفلسفة والدّين من المواضيع المهمّة الّتي شغلت العصر، نظرا لكونها تجمع بين حضارتين عملاقتين اليونانيّة والحضارة العربية الإسلامية، وما نشب عن ذلك من صراع فكريّ المُؤيّد فيه أكثر من المُعارض، نظرا للاختلاف البارز بين القضيّتين على الرّغم من أنّ لكلّ منهما مُناصرا ومدافعا عنها.

طرح الكاتب استفهاما بلاغيّا الغرض منه الإنكار؛ بمعنى أنّ لا مجال للمقارنة بين الدّين والفلسفة بحكم أنّ ما أُنزل بالوحي لا نستطيع مقارنته بالشّيء المأخوذ بالرّأي. والاستفهام آليّة لغويّة توجيهيّة، استعملها المتكلّم كأداة للتّوجيه والسّيطرة على ذهن المُخاطب، وإثارة انتباه ذهنه لمتضمّنات القول دون التّصريح بها، هذا الأسلوب الضّمنيّ المتجسّد في الاستفهام " فأين الدّين من الفلسفة؟ وأين الشّيء المأخوذ بالوحي النّازل من الشّيء المأخوذ بالرّأي الزّائل؟ "، يُكوّن لدى المُرسل إليه إجابة يتضمّنها القول وتتمثّل في إنّه لا وجه مقارنة بينهما، وهذا الفعل التّعبيريّ يؤدّي وظيفة تواصليّة القصد منها تحقيق فعل الإنجاز الّذي يرنو المتكلّم إلى تحقيقه ألا وهو التّأثير في المتلقّي وبعث عنصر الإقناع لديه، كما نستشفّ ذلك من خلال تلك المقارنة بين الدّين والفلسفة على اعتبار أنّ" النّبيّ فوق الفيلسوف" و"الفيلسوف دون النّبيّ"، فالمتكلّم يؤكّد في قوله معنى منطقيّا، وهو أنّ لا

وجه مقارنة بينهما، هذه النّتيجة الحتميّة تظهر في معطيات قول السّارد ضمن السّياق التّواصليّ بينه وبين المتلقّي على أنّها استلزام حواريّ لِمَا قِيل؛ أيْ أنّ النّبيّ في منزلة التّميز والتّفرّد على الفيلسوف، وهذا يُحقّق استلزاما حواريّا يتمثّل في أنّ الفيلسوف دون النّبيّ، ومبعوث إليه لا مبعوث كنتيجة منطقيّة لما قيل؛ أي هي حاصل القول الّذي سبقه.

1.2- الاستلزام الحواريّ:

كما نرى أنّ علاقة الاستلزام جليّة وواضحة بين الجملة " لو كان العقل يُكتفى به "و الجملة " لم يكن للوحي فائدة"، أنّ الجملة الأخيرة هي استلزام حاصل لما قبلها، وهو نتيجة ضروريّة ومنطقيّة لما قبلها من كلام. وهذا النّوع من الاستلزامات التّداوليّة تتعلّق بقوّة التّلفّظ، وترتبط بالمعنى الّذي يصدر من المتكلّم إلى المتلقّي في سياق تواصليّ يهدف من خلاله المتكلّم إرساء مفاهيم عقليّة، وتحقيق مقصديّة حمل السّامع إلى الاقتناع بوصفها مفاهيم منطقيّة بحتة.

هذه الآليّة التّداوليّة تتخلّل مضامين القول في المحادثة، لكنّها ليست كالافتراض المُسبق الّذي نجده عادة في ذهن المتكلّم ولا نجده في القول؛ أي أنّه يسبق التّلفّظ بالكلام.بل هي آليّة تداوليّة يتخلّل الحوار، وتكون نتيجة منطقيّة لما قِيل من كلام، وبالتّالي فهي تختصر معانٍ عميقة على المتلقّي أن يكتشفها ويفهم معانيها ومحتواها الدّلاليّ في سياق التّواصل التّداوليّ المُنبثق عن طريق ذلك الحوار بينهما وفق استعمال اللّغة، وهذه المعطيات اللّغويّة والدّلاليّة استطاعت التّداوليّة كمنهج حديث بعثها من جديد، وإعطاء الخطاب طابعا بلاغيّا جماليّا كشف بدوره عن الدّلالات العميقة الّتي سيطرت على صيرورة السّرد لدى التّوحيديّ، الّتي احتوتها تلك التّراكيب والأنساق، وبعثتها بحُلّة جديدة كخطاب قابل للقراءة بشتّى الطّرق والمناهج الحديثة ليعيش في اللاّزمنيّة؛ أي في غير عصره، ونستطيع قراءته من جديد وبنمط نقديّ حديث.

2.2 تداوليّة الخطاب المعرفيّ:

لقد هيمن خطاب المعرفة في سرديّة التّوحيديّ، وطغى بشكل ملحوظ في مسامراته اللّيليّة مع الوزير، هذا الأخير الّذي يتُوق إلى كشف الحقائق المعرفيّة الّتي كانت شائعة في

عصره، والرّاوي لا يتوقّف عن سردها وبيان معالمها وعلمائها الّذين ذاع صيتهم في آفاق العصر، هذا الحضور المعرفيّ طغى على الخطاب ووضعه الكاتب ضمن استراتيجيّة تواصليّة، وفي سياق مستوفٍ للشّروط، على اعتبار أنّه يصبو إلى مقصديّة تواصليّة حقّقت غرضا وظيفيّا فعّالا يتمثّل في الجانب التّوجيهيّ، وتفعيل خاصيّة وفعل التّأثير في المتلقّي، وإنجاز فعل تخليق سلوكه، وذلك عن طريق حشد كلّ تلك القيم والأفكار المعرفيّة ضمن المقام التّواصلي بينهما، وتحقيق تعايش الإمتاع والفائدة.

لقد مزج التّوحيديّ الأدب والسّرد بالمعرفة على اعتبار أنّ سياق التّواصل بين المبدع والمتلقّي شَهد مسامرات ثقافيّة معرفيّة تطرّق فيها إلى قضايا الأدب والفلسفة والدّين والأخبار والحكايات...، فكان السّرد وسيلة لغاية تمثّلت في بثّ المعرفة و الفِكر بصياغة لغويّة بلاغيّة فاقت كلّ الحدود سحرا وبيانا، ضمن إطار تواصل تداوليّ حواريّ حرص فيه المبدع إلى أن يُحقّق من خلاله خطابا فريدا من نوعه؛ فجعل السّرد وظيفة تواصليّة بلاغيّة، ومن القيم الإنسانيّة مجالا رَحبا مُتاحا لإدراك الإنسان لتلك القيم، والعمل بها في حياته الطّبيعيّة، فكان خطابه منبعا للبلاغة العربيّة بجميع معطياتها الجماليّة والإبداعيّة، وبهذه الخصائص المميّزة نستطيع أن نصنّفه ضمن إطار " الخطاب المعرفيّ" ذي وظيفة تواصليّة ومقاصد ضمنيّة اكتسحت ليالي السّمر، وفعّلت المحادثة بين طرفي الحوار ، كان للمبدع الدّور الكبير في تحقيق فعل الإقناع، وإجبار المتلقّي على إنجاز فعل التّأثير، وهذا ما يبدو عليه السّامع في أنّه أظهر انطباعه تجاه ما تلقّاه من معرفة من السّارد فردّ بقوله:« هذا كلام عجيب ما سمعت مثله على هذا الشّرح والتّفصيل...، هات فائدة الوداع، فقد بلغت في المؤانسة غاية الإمتاع »1.وتتمثّل في مُلحة الوداع الّتي تعتبر مُكوّنا أساسيّا من مكوّنات السّرد لدى التّوحيديّ ، وتكون في نهاية معظم اللّيالي،وهي بدورها لا تخلو من مضمون ومعنًى معرفيّ ثقافيّ، يصنع من خلالها الكاتب فارقًا زمنيّا بين ليالي السّمر، كما يبعث من خلالها لهفة شوق الانتظار لبعث عهد جديد يتمثّل في ليلة جديدة قادمة. هذه المُلحة خاتمة معرفيّة ضمن سياق التّواصل الحواريّ التّداوليّ بين

1السّابق- الجزء الثّانيّ - ص193.

الطّرفين ، فهي تصدر من المتكلّم وتبعث في المتلقّي الشّعور بالافتنان الحواري، وانتظار اللّقاء المتجدّد في مجلس قادم قريب.

هذه المُلحة المعرفيّة الّتي استقيناها من الحوار والتّواصل بينهما تبعث الابتهاج والمتعة في نفسيّة السّامع، وتحقيق وظيفتين سعى إليهما الكاتب ضمن ليالي السّمر، الأولى: وظيفة حواريّة تثقيفيّة هدفها التّأثير في المتلقّي وحمله على العمل بالقيم الإنسانيّة الفاضلة مهما كانت سلطته ومركزه فإنّه يظل مسؤولا ومُطالب بأداء واجبه على أفضل وجه، والوظيفة الثّانيّة هي وظيفة تواصليّة تيسّر اللّقاء القادم، وتبثّ فعل الشّوق والوَلَه لدى المتلقّي وجعله يهفو إلى تجديد عهد اللّقاء، وكل هذا يُساهم في إنجاح المسامرات وبلوغ غاية التّواصل.

لا يقتصر التّوحيديّ على تحقيق غرض الإمتاع، بل هدفه تمكين المتلقّي من بلوغ مستوًى علميّا يمكّنه من استيعاب علوم عصره، وكسب المعرفة والثّقافة السّائدة فيه. وهذا ما كان يصبو إليه الوزير منذ بداية اللّيلة الأولى، بقوله:« فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّأنيس، لأتعرّف منك أشياء كثيرة مختلفة تُردّد في نفسي على مرّ الزّمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، ولكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس»1. فكان الهدف من عقد التّواصل المُبرم بينهما هو بثّ المعرفة، وهذا ما استطاع أن يُثبته الكاتب ضمن طيّات الخطاب الّتي التحمت فيه اللّغة بالبلاغة والبيان، والوظيفة الجماليّة بالفعل التّأثيريّ ضمن سياق التّواصل التّداولي بينهما، الّذي سعى المتكلّم من خلاله إلى تمرير الخطاب المعرفيّ، وجعل المتلقّي أكثر تقبّلا للمعرفة والأيمان بها والعمل بمحتوى القيم الّتي ينطوي عيها.

لقد أسّس أبو حيّان استراتيجيّة معرفيّة عمادها ذلك التّواصل الحواريّ بينه وبين الوزير، والغاية منها العمل بالقول وتحقيق الفعل الإنجازيّ المُراد، وكان هدفه الأسمى هو تحقيق وظيفة التّوجيه والتّعليم من خلال مقام التّواصل بينهما، كان لدى المتلقّي الدّور في إبداء المبادرة وطرح قضايا النّقاش، كما جاء على لسانه:« أحبّ أن أسمع كلاما في مراتب النّظم والنّثر، وإلى أيّ حدٍّ ينتهيان، وعلى أيّ شكل يتّفقان، وأيّهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وادخل في الصّناعة وأولى بالبراعة؟ فكان من الجواب: إنّ الكلام على

1السّابق- الجزء الأوّل - ص30.

الكلام صعبٌ...، وقال: النّثر من قبل العقل، والنّظم من قبل الحسّ، ويُقال: ما أحسن هذه الرّسالة لو كان فيها بيت من الشّعر، ولا يُقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيء من النّثر،لأنّ صورة المنظوم محفوظة، وصورة المنثور ضائعة...»1 ،و«قد قال بعض العرب: خيرُ الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام»2.المبدع استرسل في الشّرح والتّحليل في عرض المقارنة بين فنيّ النّثر والشّعر، مُحاولة منه بيان خصائص ومميّزات كلّ فنّ على حِدة، مُدعّما أقواله بشواهد علماء عصره من لغويين وبلاغيين بغرض سرد مجموع فنون الأدب من شعر ونثر وبلاغة.

يحتل الحوار موقعا مميّزا في خطاب التّوحيديّ على افتراض أنّه بُني على صيغة "السّؤال والجواب"؛ أيْ أنّ تداول تلك الأسئلة والأجوبة يندرج ضمن اتّفاقيّة المُبرمة بينهما، فمهما كان السّؤال ، فالمُجيب يَعمدُ إلى إظهار الجواب بشكل ظاهر أو ضمنيّ ، ويكون هذا الجواب متوقّعا لدى الوزير، خاصّة وأنّه يعلم علم اليقين أنّ المتكلّم موسوعة علمية، ولديه ما يقوله من مقال في مقام مناسب، لكنّ المتلقّي بالرّغم من أنّ له خلفيّة معرفيّة مُسبقة، إلاّ أنّه ينقصه نوع من التّأكيد أو النّفي أو التّرتيب والتّصحيح للمعرفة الّتي تجول في ذهنه.

جواب المبدع يتضمّن كلاما ضمنيّا إلى حدّ بعيد، ففي جملة " إنّ الكلام على الكلام صعبٌ"، يُظهر لنا معنًى مستورا يتوارى خلف الكلمات، والسّارد ينتهج لغة بلاغيّة في شرحه وتحليله وهو يتطرّق إلى الحديث عن صناعة فنّ النّظم والنّثر، الّتي بدورها لا تخلو من لغة إبداعيّة بلاغيّة، ودلالات بيانيّة وتراكيب نحويّة تستوقفنا جميعا للنّظر في ماهيّة وخصائص صناعة الكلام، فيما يخصّ الشّعر والنّثر ومراتب كليهما. مُبيّنا في ذلك خصائص الشّعر الّذي يستطيع أن نستشهد به في النّثر لكونه موزون ومقفّى، وبإمكان الذّاكرة حفظه في الذّهن، على خِلاف النّثر فإنّها تُضيّعه، كما استند إلى قول بعض العرب في كون " خيرُ الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام"، و القصد من ذلك أنّ الكلام البليغ المستوفي لجميع الخصائص البلاغيّة والبيانيّة من وضوح وصناعة من ناحيّة الدّلالة والمعنى، لا يمكنه أن يستوعب أيّ إضافة سواء من ناحيّة المعنى أم اللّفظ. فالمتكلّم

1السّابق- الجزء الثّاني - ص274-278.

2نفسه- ص289.

يُحاول إيصال المعنى بطريقة ضمنيّة أنّ لا يمكن لأيّ كلام حسن الصّناعة والتّأليف أن يقبل أيّ إضافة عليه أو على معناه؛ بحُكم أنّه استوفى شروط صناعة الكلِم معنًى ودلالة وبيانا وبلاغة. وهنا يأتي دور المستمع المتمكّن في أن يتعرّف على تلك المعاني الضّمنيّة، ويستدلّ من قول المتكلّم، ويبادر إلى فكّ رموزها ومدلولاتها لكي يتمكّن من استيعاب القصد منها والغرض من طرحها، والاستفادة منها ضمن سياق التّواصل الحواري لكي يتمكّن من الفعل الإنجازي والاستيعاب المطلوب.

وكذلك كلّما كان الكلام واضحا يتقبّله العقل ويستوعبه الحسّ يكون أقرب إلى الفهم والاستيعاب، وهذا لا يعني أنّ الكاتب مُجبر بأن يُدلي برأيه في قضايا بلاغيّة ويعرضها بأسلوب بسيط ومباشر، لكن عندما يتعرّض من طرف السّائل بطلب الفصل في قضيّة صناعة الأدب شعرا ونثرا، فيكون على استعداد تامّ إلى أن لا تقل اللّغة المستخدمة من طرفه مستوى المعنى المعروض، أو المتحدّث عنه. لذا يلجأ المبدع إلى انتهاج أسلوب بلاغيّ يمكّنه من استخدام لغة تضمين المعنى في المحادثة، وذلك باستخدامه التّعابير الضّمنيّة الّتي يصبو المتكلّم إيصالها دون قولها ضمن الكلام الصّريح. وما على المتلقّي إلاّ أن يكشف كُنهها ومعناها المقصود.

إنّ خطاب التّوحيديّ يجمع عدّة خطابات فلسفيّة ودينيّة، ومجموع الآراء والأفكار والمعارف الّتي جميعها تشكّله وتُساهم في بنائه، لذا قد ينظر إليه على أنّه نصّ يحرص على الإمتاع بحكاياته المسليّة، وثقافته الّتي تُثير إعجاب القارئ، لكن هذا لا يعني أنّه يخلو من معانٍ ضمنيّة قد يكون للتأويل الدّور الفعّال لكشف مدلولاتها ومقاصد معانيها المتضمّنة في القول. وهذا ما نستشفّه في قول المبدع الّذي لا يلبث أن يطرح آراءه وفق بطريقة لا تخلو من تضمين للمعنى، فيكون على المتلقّي توظيف خاصيّة التّأويل خاصّة إذا تعلّق الأمر بارتباط الخطاب الفلسفيّ المعرفيّ بتقديمه كإجابة لسؤال مطروح، يفعّل فيه المتكلّم جميع أفكاره، والمطلوب من المتلقّي تأويلها لكسر الغموض فيها وكشف مضامينها القصديّة، كما جاء في قوله:« ما الفرق بين الإرادة والاختيار؟ فكان من الجواب أنّ كلّ مُرادٍ مختار، وليس كلّ مختارٍ مرادًا...»1. فالمعرفة عنده إمتاع وتواصل، ومكوّن من مكوّنات السّرد؛ إذ به يستطيع تمرير مضامين كلامه ضمن قضايا فلسفيّة بجميع

1السّابق- الجزء الثّالث - ص395.

تناقضاتها وتنوّع قضاياها، الّتي تهدف جميعا إلى معرفة الإنسان والنّفس البشريّة بين قدرة اختيارها وإرادتها، تلك المعرفة كان القصد منها معرفة جوهر الإنسان وعلاقته بمن حوله.

لذا فالحديث عن قضايا النّفس والعقل والإرادة والاختيار من أهمّ المواضيع الفلسفيّة الّتي أخذت مساحة واسعة في سرديّة التّوحيديّ كخطابات معرفيّة ساهمت بشكل جليّ في تثقيف المتلقّي وتعليمه والتّأثير فيه، فهو بهذا جعل المعرفة أساس التّواصل، يسعى من خلالها المبدع إلى ترسيخ القيم الأخلاقيّة، كما ورد في قوله:« لا تكن حُلوًا فتؤكل، ولا مُرًّا فتعاف»1.« الشّقيّ من جمع لغيره فضنّ على نفسه بخيره»2.« عنوان الشّرف حُسن الخلق»3. تلك مجموعة من التّوجيهات الّتي أراد الرّاوي تلقينها للمتلقّي، والّتي تمثّل خلاصة تجربته ومعرفته بالحياة ، كما تُحيلنا إلى سياقات خارجيّة استقاها المتكلّم من خلال اطّلاعه لما مدى ضرورة الاعتدال بالحياة والتّحلّي بالقيم النّبيلة، محاولة منه جعل المتلقّي يغيّر من حياته وفكره تجاه نفسه وعلاقاته بمن حوله.

الكاتب يمارس الوظيفة التّوجيهيّة الّتي تنطوي على القيم الإنسانيّة الفاضلة، الّتي تمكّن الإنسان من العيش الكريم، بتعامله وفق إيمانه واعتقاده الدّيني، ووفق مبادئه وأخلاقه الفاضلة.

إنّ المعرفة عند التّوحيديّ أسلوب حياة ونمط تعايش، لأنّها تُسهم في الإمتاع والفائدة، ونظرا لكون أنّ هذه المعرفة مقترنة بالتّواصل، فإنّ المبدع يصبو إلى تحقيق الوظيفة التّأثيريّة الّتي تتمثّل في التّوجيه والإصلاح وتثقيف المخاطَب بواسطة الحوار كمكوّن أساسيّ اعتمده الكاتب ليُتيح فرصة لتنامي السّرد بواسطة تساؤلات الوزير الّتي لها مقصديّة الإشباع الفكري الثّقافي، والشّعور بالمتعة والفائدة، وهذا الحوار في مختلف مجالات الحياة أسهم في ترتيب الأفكار والأحداث، وخَلق مُكوّنا آخر ساهم في إثراء السّرد وفعّل عناصره، ومجال البوح فيه بواسطة تقنيّة الحجاج ضمن ذلك التّواصل الطّبيعيّ بين المتكلّم والمتلقّي. كما يظهر ذلك في ليلة من ليالي السّمر يُبادر الوزير بسؤال محيّر

1نفسه- الجزء الأوّل- ص47.

2نفسه- الجزء الثّانيّ- ص222.

3نفسه- ص223.

يجعل من المبدع تجنيد كلّ الوسائل الحجاجيّة وتفعيلها للوصول إلى رأي صائب يحكم فيه في قضيّة شائكة، يوظّف فيها كل خبراته وحججه لإقناع السّائل والتّأثير فيه، بسؤال:« أتفضّل العرب على العجم أم العجم على العرب؟...، أقبل علينا ابن المقفّع، فقال: أيّ الأمم أعقل، فضنّنا أنّه يريد الفرس، فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربته، ونتوخّى مصانعته، فقال: كلاّ، ليس ذلك لها ولا فيها...، فقلنا: الرّوم، وقلنا: الصيّن...، قال: العرب. قال: ما أحسن ما قال ابن المقفّع ! وما أحسن ما قصصته، وما أتيت به! هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبط.»1. التّوحيديّ يلجأ إلى إقناع السّائل بحجّة دامغة تتجسّد في رأي الأديب الكاتب" ابن المقفّع" في بيان أفضليّة العرب عن الأمم الأخرى في مجال البلاغة والفصاحة، ومجال مكارم الأخلاق وفضائلها. ومع أنّ ابن المقفّع فارسي الأصل، والجماعة تتوقّع ميله ومناصرة قومه، لكنّه اتّسم بالموضوعيّة وناصر العرب وأنصفهم، وقال العرب هم أفضل الأمم. تلك الحجج صدمت الوزير وأذهلته وتمكّنت من السّيطرة على ذهنه وحصول التّأثير فيه بردة فعل كانت متوقّعة وهي استحسانه واقتناعه بما قاله المبدع، لأنّ هذا الأخير استعان برأي عالم بالأمم وأسرار حياتها وطبيعة تفكيرها، ونبوغها في مجال البلاغة والبيان، ألا وهو " ابن المقفّع"، كلّ هذه الحجج ساهمت في إقناع الوزير وإبداء الرّضا في نفسه، وتحقيق الفعل الإنجازي المراد ؛ ويظهر ذلك في قبول تلك الآراء والاقتناع بها واستحسانها.

لقد تمكّن التّوحيديّ من فرض كلامه وإقناع الوزير، بواسطة تلك الوسائط الحجاجيّة المتمثّلة في اختيار تعابير لغويّة تدلّ على قوّة اللّفظ التّواصليّة الّتي أدّت إلى تحقيق الوظيفة التّأثيريّة عن طريق ما اعتمده الرّاوي في الاستعانة بمجموع من الحُجج القويّة لإقناع المخاطَب في سياق تواصلي أحال المبدع على استحضار مجموع السّياقات الخارجيّة الّتي تمثّلت في مجلس "ابن المقفّع " مع جماعة يريد أن يُعلّمهم من هم أفضل الأمم في زمانه. فاقتباس كلّ تلك الحجج والشّواهد من طرف المبدع لمقصديّة معيّنة تتمثّل في أقناع الوزير، ولا يمكن الفصل في الحديث من طرف المبدع إلاّ بعد أن يبدي المخاطب رضاه واقتناعه وإبداء شعور الاستحسان والفائدة لديه. وقد عبّر عن ذلك

1الإمتاع والمؤانسة - الجزء الأوّل- ص64.

بقوله:« لقد كنت قَرِما إلى هذا النّوع من الكلام»1. وهذه الرّغبة الشّديدة في حبّ المعرفة لديه تمكّن السّارد من تفعيل استمرار السّرد وتفعيل الحجج لإثارة المتلقّي وتحقيق الفعل التّأثيريّ، وكل ذلك يقود إلى القوّة الوظيفة الّتي ساهمت في تحقيق فعل الإنجاز، وتمكين المخاطب من التّفاعل غايات المبدع المعرفيّة الّتي كان نهجها الحوار ومقصديّتها التّشويق والإمتاع.

الخاتمة:

وبهذا كلّه لا يُنظر إلى خطاب التّوحيديّ على أنّه نصّ سرديّ يعتني بتوالي الأحداث وتعاقبها ، بل هو نصّ تداوليّ معرفيّ انتهج فيه الكاتب الحوار في سياق تواصلي مبعثه المحادثة بين الطّرفين، ومبتغاه تحقيق فعل التّأثير في اعتقاد المتلقّي وتغيير وجهة نظره تجاه بعض القضايا الحياتيّة، لذا كان الإسهام في نهج طريق السّرد ماهو إلا مجرّد وسيلة للوصول إلى غاية محدّدة هي بثّ وخلق المعرفة، وتعليم المخاطب وتوجيهه نحو

الأفضل، كلّ هذا الخضمّ المعرفيّ في الخطاب نجده يتوارى خلف طبيعة الإمتاع والأنس الّتي تعد خاصيّة تستهوي الحسّ قبل العقل، وتلامس المشاعر قبل الذّهن، إنّها طريقة التّوحيديّ في إمتاع السّامع عن طريق المعرفة، وكيف تصل تلك المعرفة إلى المتلقّي وإلى القارئ فيستفيد منها ويعمل بها في نهج حياته الطّبيعيّة.

لذا يعد الخطاب المعرفي عند التّوحيديّ هو تسخير السّرد لعرض المعارف وعلوم العصر، وذلك بواسطة الحوار الّذي ساهم بشكل كبير في المحادثة، وإعطاء فرصة أكبر للتّواصل، واستمرار الحديث لبلوغ المبتغى المعرفي الّذي أراد الرّاوي أن يوجّهه إلى المتلقّي، الّذي يحمل في طيّاته غرض إفادته وتهذيب نفسه، والتّأثير فيه بواسطة تلك الخطابات المعرفيّة بكلّ ما تحتويه من مضامين أخلاقيّة وتعليميّة.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو حيّان التّوحيديّ-2009م- الإمتاع والمؤانسة- تحقيق أحمد جاد - ط01- دار الغد الجديد- القاهرة.

1السّابق - ص79.

- أبو الفتح عثمان بن جنيّ- 2006م - الخصائص- تحقيق محمّد علي النّجار- المكتبة العلميّة- القاهرة .

- أحمد محمّد المعتوق- 1996م - الحصيلة اللّغويّة - عالم المعرفة .

- آن روبول- جاك موشلر- 2003م-التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل- ترجمة سيف الدّين دغفوس- ط01-المنظّمة العربيّة للتّرجمة- بيروت- لبنان.

- تمّام حسّان – 2007م - اجتهادات لغويّة - ط01 - عالم الكتب - القاهرة.

- جورج يول- - 2010م - التّداوليّة- ترجمة قصي العتابي- ط01- دار الأمان- الرّباط-

- فيليب بلانشيه- التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان- 2007م- ترجمة صابر الحباشة- ط01- دار الحوار للنّشر- سوريا- .

- محمود عكاشة- البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)- " دراسة المفاهيم والنّشأة والمبادئ"- مكتبة الآداب- القاهرة- مصر- ط01-2013م.

- وليام جيمس- البرغماتيّة- Pragmatics- 2014م - ترجمة وليد شحادة- ط01- دار الفرقد-سوريا-.